التدين هو العـــلاج لأدواء البشرية

الدين والتدين والتصوف

للدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق

— ٢ —

ليس التصوف في أعلا درجاته الا التدين الحق والمعرفة الصحيحة لكل ما لايستطيع العقل أن يصل اليه اذا ركن الانسان اليه وحده ، وهذه المعرفة نتيجة التدين ؛ أى نتيجة الايمان الكامل بالله وحده ، واخلاص القلب له ، والعمل بشريعة الله وأحكامه وما جاء به الدين من أخلاق وآداب .

أريد أن أقول ان المرء لن يكون متصوفا حتى يغلب عليه التوحيد علما وخلقا ، ولا يكترث بالوجود مقبلا عليه أو معرضا ، وحينئذ يصفو قلبه الا من الله وذكره وحسن عبادته ؛ ويصل الى مقام المعرفة التى هى أشبه شىء بالالهام الذى لا شك معه ولا لبس فيه .

ولا عجب فى شىء من هذا ؛ فان المعرفة التى يصل اليها « العارف » فى هذا المقام تكون علما يقينيا ، ويكون الله تعالى أمره هو سببه المباشر ، أى يكون ناشئا عن عمل وتقوى وطاعة لله فيما يأمر به وينهى عنه ، حتى يكون الله — كما أخبره عن نفسه — هو سمعه الذى به يسمع ، وبصره الذى به يبصر ...

ولكن ليس لكل من شدا شيئا من التصوف أن يزعم انه صار عارفا ، فانها مرتبة عالية تنقطع دونها رقاب الكثيرين ! ان للعارف أمارات تدل دلالة صادقة عليه ، ونعوتا يتصف حقا بها . ومن هذه الامارات والنعوت والصفات — كما يقول الشيخ الاكبر محيى الدين بن عربى — ما يجعل العارف يغيب عن نفسه ، فلا يشهد غير الله لاستيلاء محبته وذكره عليه ؛ وأن يكون برما بالبقاء فى هذه الحياة الدنيا ، لما عرفه من أن فى الموت لقاء الله حبيبه ، فهو لا يأسف على شىء يفوته اذ لا يرى غير الله الموجود الحق .

ومنها أن يكون قلبه مرآة للحق ، محتملا لكل ما يناله من أذى ، حليما باكى العين ضاحك القلب ، عارفا ربه بربه ومريدا لكل ما يراد منه * لا يفرط ولا يفرط ، بل يتخذ بين هذين الطرفين المذمومين سبيلا وسطا هو الخير والفضيلة ؛ يحسن للمسىء والمحسن ، ويرى نفسه كالأرض الطيبة يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب يروى ما يحب وما لا يحب ؛ يرجع لله فى كل أمر ، ولا ينتقم لنفسه ولا لربه الا بأمر منه . ومنها أخيرا أن يكون جامعا لعلوم الشرع ، مستغنيا عن تعليم الخلق بتعليم الحق ، وأن يعمل ما ينبغى كما ينبغى لما ينبغى .

واذا كان هذا هو شأن المتصوف العارف ، وتلك هى أماراته ، كما يقول الشيخ الأكبر ؛ فان كل ذلك نستطيع أن نجعله فى كلمة واحدة ، وهذه الـــكلمة هى « التدين » الحق ، أى العمل بما جاء به دين الله وشريعته . وبهذا التدين تصفو النفوس ، وتتحاب القلوب ؛ ويتعاون جميع الناس

فى مشارق الارض ومغاربها على الحق والخير للجميع ؛ فلا تكون عداوة ولا عدوان ، بل يكون الحب والوئام والهناء والسعادة ·

* * *

هـــذا ، والتدين بدين ما قديم قدم البشرية كما هو معروف وثابت تاريخيا ؛ فانه ما من جماعة انسانية كانت تعيش فى ذلك الزمن الماضى القديم الا كان لها دين ومعبودات تتجه اليها وبخاصة حين الحاجة ، وتقوم لها بفروض العبادة رهبة ورغبة ، فان الرهبة والرغبة هما الطابع الذى يلازم كل دين من أول عهد البشرية بالحياة حتى عهد الديانات السماوية الصحيحه ·

هذا ما كان فى مصر ، وفى بابل وأشور وما بين النهرين ، وفى الهند وما حولها ؛ وفى الصين وما يليها ، وفى فارس ، وفى سائر بلاد ذلك العالم القديم · وذلك بأن الاعتقاد فى شىء وعبـــادته رغبا ورهبـــا أمر طبيعى فى الانسان ، وحاجة من حاجات النفس تهيمن على المرء طول حياته ، واذا فلا بد من ارضائها واشباعها كسائر حاجات النفس الطبيعية الاخرى

ولو لم تكن الغريزة الدينية أمرا طبيعيا فى الانسان ، لعز على الانبياء والمرســـلين تبليغ الوحى الالهى للذين أرســـلوا اليهم ، أو لكان تثبيت الوحى — بعبارة أدق — فى قلوب متبعيهم الذين يبشرونهم به أمرا عسيرا كل العسر عليهم ·

ان الواحد من هؤلاء الانبياء والمرسلين المصطفين لهداية الخلق لا يجد أن عليه أن يحدث هذا الشعور الدينى فى نفوس من أرسل اليهم ، اذ أن هذا الشعور غريزى فى الانسان كما عرفنا ، ولكن الرسول يرى أن الناس قد ضلوا السبيل الى الدين الصحيح ، والى المعبود الحقيقى بالعبادة وحده ؛ اذ قد يرى منهم من يعبد الأوثان والاصنام ، ومن يعبد النجوم والكواكب ، ومن يعبد ضربا من الاشجار أو الحيوانات ·

وحينئذ ، تكون مهمته أو رسالته أن يلفتهم عما عليه ، وأن يهديهم الطريق المستقيم ؛ وأن يبين لهم الدين الصحيح ؛ حتى يصـــل بهم الى الاعتقاد فى الله الواحد الاحد ، الازلى الخالد ، والى أن يدينوا له وحـــده بالطاعة والانقياد والرضا والتسليم ·

ومن أجل هذا وذاك ، يكون لنا أن نقرر أن نشر الدين الصحيح ليس معناه ايجاد الميول الدينية التى لم تكن من قبل ، بل معناه توجيه هـــذه الميول الوجهة الصحيحة لتصل الى الدين الحق · وبهذا يكون الوحى الالهى رحمة بالناس جميعا؛ اذ يهدى النفوس الضالة،ويساعد العقل على الوصول الى الحق من أقرب الطرق وأيسرها ؛ ومن ثم ، يرى ابن رشد ، فليسوف قرطبة ، أن الوحى رحمة لجميع الاصناف ، أى أصناف الناس على اختلاف استعداداتهم وعقولهم ·

وبعد ما تقدم ، لسنا فى حاجة الى بيـــان أن الأديان التى عرفتهـــا الانسانية فيما مضى من التاريخ كانت مختلفة وعديدة الى حد يعجز العاد، وذلك حسب اختلاف العقول وصور التفكير فى العصور والبيئات المختلفة

العديدة ؛ ولكن نشير فقط الى أن هذه الاديان منها ما هو سماوى جاء به الرسل والانبيا ، ومنها ما هو غير سماوى ، ومن وضع البشر ؛ ولا يزال فى العالم اليوم من هذه الديانات غير الالهية ديانات متعددة فى الهند والصين وافريقية .

أما الاديان السماوية فهى كما نعلم : اليهودية، والمسيحية، والاسلام؛ والاسلام هو خاتم هذه الاديان الالهية ، ولهذا سيكون هو موضوع بحثنا على هذا النحو :

١ - بيان بعض خصائصه التى تجعله بحق خاتم الرسالات الالهية .

٢ - بيان حال العالم مع التدين وحاله وقد ابتعد عنه .

٣ - وأخيرا ، بيان الحاجة الماسة الى التدين بالاسلام .

على أنه ينبغى قبل هذا كله أن نشير الى وجه الحاجة لظهور الاسلام برسالة جديدة ؛ فان اتصال السماء بالارض بوحى جديد هو أمر معجز لا يكون الا لاسباب تقتضيه ، وقد كانت هناك حقا أسباب قوية حقيقية تجعل الحاجة ماسة جدا لدين جديد يكون خاتم الرسالات الالهية للناس جميعا فى كل مكان وزمان .

جاء الاسلام والعالم قد انقطع عن الحق وضل عن سواء السبيل ، فاليهود والنصارى ، الا قلة قليلة بقيت على دين ابراهيم ، قد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وقال بعضهم : « عزير ابن الله » ، وقال الآخرون : « المسيح ابن الله » . وفى فارس صار الاكاسرة ، وقد رأو أنه لا أمر فوق أمرهم ، يعدون أنفسهم أشبه بالآلهة فى السلطان والجبروت والحقوق ، كما كان فيهم ثنوية « مانى » التى تقول باله للخير واله للشر ، واباحية « مزدك » الشيوعى فى النساء والاموال التى ما كان يمكن أن يقوم على أساسها مجتمع صالح للحياة الطيبة .

وفى الروم كان الامر شبيها بما كان عند فارس من جبروت السادة وعسف الاقوياء بالضعفاء ، حتى ليتخذونهم خولا وأنعاما وعبيدا لهم ، هذا ، الى جدل فارغ عنيف فى مسائل الدين ، وسفسطة مذهبية جوفاء جلبتها الروح الاغريقية الى الدين المسيحى ، وكان من ذلك أن تزلزلت أصول العقيدة الدينية ذاتها .

ولم يكن الحال بافضل من هذا أو ذاك فى بلاد العرب ، سواء فى الناحية الاجتماعية أو الدينية ، ففى المجتمع كانت الفرقة الشاملة نتيجة للروح القبلية التى كانت تسودهم ، كما كان امتهان الكرامة الانسانية الذى يتمثل فى وأد البنات واسترقاء الاسير .

وفى ناحية الدين بخاصة ، كان حمق الرأى وضلال العقل والفكر ، حتى كانوا يعبدون ما ينحتون من تماثيل ، ويتخذون آلهة ما يصنعون من أوثان وأصنام . وقد وصل بهم الامر فى هذه الناحية ، كما يقول ابن اسحاق فى

سيرته ، أن اتخذ أهل كل دار صنما يعبدونه ، فاذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب ، وكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله . ولقد كان الرجل ، كما يقول الكلبى فى كتاب الاصنام ، اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه ربا ، وجعل الثلاثة الباقية أثافى لقدره ، واذا ارتحل تركه ، فاذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك ! اى سخرية بالعقل وضلال للفكر ، وامتهان للانسان والكرامة ، أكبر من هذا الصنيع !

كان العالم اذا ، شرقيه وغربيه ، بحاجة الى دين جديد يحيى ما اندثر من الديانات الالهية السابقة ، ولولا هذه الحاجة الملحة ما اتصلت السماء بالارض لتوحى اليها بهذا الدين الجديد وهو الاسلام ؟ فان هذا الاتصال ، وهو خرق لقوانين الطبيعة ، لا يكون الا حين تدعو اليه الحاجة العاجلة والضرورة المطلقة .

كذلك كان الامر حين أشرق على العالم نور الاسلام ، وحين جاء وحى السماء بدين جديد يوائم الانسانية وقد بلغت رشدها ، وبعد أن استنفدت كل من اليهودية والمسيحية أغراضها ، وأصبحتا غير صالحتين لقيادة الانسانية أبد الدهر ، كما يوائم العالم كله فى كل ما يمر به من مراحل ، لا فرق بين عرب وعجم وشرق وغرب ، وهكذا حتى يرث الله الارض ومن عليها

وكان من هذا ، انه لما أهلت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء ، لم تعد تلك المسيحية — التى اختلطت بالغش والزيف ، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، وتزعزعت عقائدها الاساسية ، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من هذه الريب والشكوك — قادرة على مقاومة هذا الدين الجديد الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا جليلة الى جانب مبادئه الواضحة التى لا تقبل الجدل . وحينئذ ، ترك الشرق المسيح ، وارتمى فى أحضان نبى العرب ، كما يقول « كيتانى » المؤرخ الايطالى فى كتابه الكبير « حوليات الاسلام »

ولا عجب فى شىء من ذلك كله ! فقد أعطى الاسلام العبد رجاء ، والانسانية اخاء ، ووهب الناس ادراكا للحقائق الاساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية ، كما يذكر الاستاذ « توماس أرنولد » فى كتابه القيم « الدعوة الى الاسلام » .

هذا ، ولكل دين خصائصه التى يتميز بها عن الاديان الاخرى ، فما هى خصائص الاسلام التى من أجلها كان خاتم الرسالات الالهية ، وكان ولايزال الدين الصالح للانسانية فى عامة أحوالها وجميع عصورها ؟ ذلك موعدنا به الكلمة الآتية ان شاء الله تعالى .

محمد يوسف موسى